التقـــديم

بقلم الأستاذ محمد على مصطفى

المفتش بوزارة المعارف ، ورئيس تحرير الصحيفة

جرى العرف الصحفى أن يكون لرئيس التحرير كلمة التقديم ، وأن تنشر تلك الكلمة — مهما كانت قيمتها — فى صدر الصحيفة التى يشرف على إصدارها ، وما كنت أعتقد أن صحيفة دار العلوم فى حاجة إلى أن يقدمها إلى جمهور القراء أحد ، فانما يقدم المجهول الذى لاعلم للناس به ، وأغلب ظنى أن زملائى أعضاء لجنة التحرير يشاركوننى فى هذا الاعتقاد ، ولكنهم — لسبب لاأفهمه — ائتمروا فيما بينهم ، وفى جلسة لم أشهدها ، واجتمع رأيهم على أن يتركوا الى ولحضرة الأستاذ مدير الصحيفة الكراسة الأولى .

ووجد مدير الصحيفة ما يكتب — وعنده دائما مدد فياض لاينضب معينه ، من حلو الكلام ، وممتع الحديث ، وشائق الأخبار ؛ ولكنه أبى إلا أن يكون عادلا فى القسمة ، فاختص نفسه بنصف الكراسة ، وترك لى نصفها الآخر ، وفكرت فى الخلاص من هذا المأزق ، الذى دفعنى إليه زملائى دفعا لارحمة فيه ، ولا لين معه ، وانتابتنى نوبة من الشجاعة ، وتناولت القلم ، أوخيل إلى أن القلم جرى إلى بنانى ، وقدم فروض الطاعة .

والآن ماذا أكتب ؟ وما البضاعة الجديدة التى أستطيع أن أعرضها على جمهرة القراء ؟ ليس عندى جديد ، ولكنى سأكرر وأعيد ، فقد ما قال الناس قد يحلو المكرر ، ويلذ المعاد .

ويذكرنى موقفى هذا موقف أستاذ من أساتذتنا الأجلاء ، الذين كنا نتلقى عنهم علوم التربية بانجلترا ، فقد دعى مرة من قبل جماعة علمية محترمة ، لها اهتمام بالحركة التعليمية فى البلاد الانجليزية أن يلقى محاضرة فى موضوع يهم المعلمين خاصة ، والمشتغلين بشؤون التربية عامة ، فلبى الدعوة ، وسمع بهذه المحاضرة خلق كثير ، فنفروا لاستماعها جماعات ، واجتمع بمدرج المحاضرات مئات من المعلمين ، الذين كانوا يمثلون مراحل التعليم المختلفة فى البلاد ، وغيرهم من طلاب العلم ، والباحثين عن الحقيقة حبا فيها . وافتتح المحاضر كلامه بقوله ما ترجمته « أنصح الذين كلفوا أنفسهم مشقة الحضور إلى هذا المكان ليسمعوا نظرية جديدة ، أو رأيا لم يسبقنى إليه أحد ، أن يتركوا أماكنهم ، ويذهبوا إلى ديارهم ، فانى أخاف عليهم لوعة اليأس ، ومضض الانتظار ، ومرارة الخيبة » .

وأنا لابد أن أكتب ، ولكنى لن أسجع فى القول ، ولن أنمق الكلام ، ولن ألجأ إلى الزخرف فيه ، ولن أهيم فى أودية الخيال . سأكون صريحا إلى أبعد حدود الصراحة ، وسأكون منطقيا ، أرتب المقدمات ، وأستخلص منها النتائج ، وسأرى الواقع فى لونه الطبيعى ، مجردا من كل صناعة .

أمامى وأنا أكتب هذه الكلمة الأجزاء الأربعة التى صدرت فى العام الأول من حياة الصحيفة ، يتردد فيها بصرى ، فينتقل من جزء إلى جزء ، فأشاهد صورة رائعة من صور النمو والتدرج فى مدارج الكمال ، ومثلا عاليا مما ينتجه الاخلاص فى العمل ، والرغبة فى إتقانه ، والتعاون فى القيام به ، وما كنت أحسب ونحن نعالج إصدار الجزء الأول أن الصحيفة ستصل إلى هذا المستوى فى مثل هذا الأجل القصير ، فشكرا لله على توفيقه ، ولبنى أبناء دار العلوم تضافرهم ، واتجاه رغباتهم جميعا نحو غرض واحد ـ هو خدمة اللغة والبلاد ، بتقويم ما التوى من الألسنة ، وتصفية الألفاظ

والأساليب مما شابها من عجمة ، ونشر الآداب العربية قوية صافية ، تفيض على القراء الحياة جديدة فتية ، ويتجلى لهم فيها ألوان الجمال فى العالم ، وتبعث فى الجيل الحاضر والأجيال المتتابعة - إن شاء الله - روحا طاهرة زكية باصلاح المعوج من شئون التعليم ، بما تذيع من نظريات التربية ، وأساليب التدريس ، ومبادىء الاجتماع .

تصفح الجزء الأول من الصحيفة ، ثم انتقل منه إلى الثانى والثالث والرابع ، تدرك مبلغ ذلك التضافر بين أبناء دار العلوم على اختلاف أقدارهم ، فهذا مقال طالب لا يزال بعد بين جدران المدرسة ، يرشف العلم من ذلك المعين العذب ، فان تقرأه تجد فيه الفتاء والقوة والطموح والآمال العذاب ، وأحلام الشباب ، وذاك مقال شيخ فى الستين من العمر أو يزيد ، يمتزج فيه النشاط بحكمة الدهر ، وتجربة العمر ، والفكر الصائب ، والرأى السديد ، وهنا فضل ممتع فى فنون الشعر التى تناولها الملك الضليل ، حامل لواء الشعراء وزعيمهم فى العصر الخوالى ، وهناك تحقيق تاريخى يتجلى فيه طابع أشياخ دار العلوم رواد العلم والأمناء على الحقيقة . وبعده باب فيما استحدث أهل الجيل من مذاهب الأدب تظهر فيه استقامة الفكر وسلامة الذوق ، وقوة الحجة ، وبلاغة العبارة ، والتمكن من صناعة الكتابة ، وبجانبه قصيدة جاش بها صدر شاعر ، فجرت على لسانه حكمة خالدة ، ومثلا سائرا ، ووحيا صادقا ، وعاطفة شريفة . وهناك أغنية مرحة من أغانى الربيع ، أرسلها قلب كبير ملىء بالجميل من اللحن ، يرى من فنون الجمال فى هذا الوجود ما لا يراه شيخ أثقلت ظهره أعباء الحياة ، وذلك فصل دبجته يراعة تصدر فيما تكتب عن عقل راجح متزن ، عالم بشئون التربية ، بصير بمشاكلها ، خبير بكل جديد فيها ، يعلمه ويرى أبين من رأى العين وجوه تطبيقه فى بلادنا المصرية .

لاتضلُّ الشعوبُ مصباحُها العلـــمُ يؤاخيه راسخُ الأيمان
فاذا أطفئ السراجُ فثمَّ وضلالٌ ما تُبصر العينان
أين آل العباس ريحانةُ الدهـــر وأين الكرامُ من مَرْوان ؟
خفت الصوتُ لا البلادُ بلادٌ يوم بانوا ولا المغانى مغانى
أزهرت فى حماهم الضادُ حينا وذوت بعـــدهم لغير أوان
إن أصاخت فالقولُ غيرُ فصيح أورنتْ فالوجوه غيرُ حسان
فمضت نحو مصر مثل قطاةٍ فزعتها كواسرُ العقبان
يكدرُ العيش مرةً ثم يصفو كم لهذى الحياةِ من ألوان
ثم هبت زعازعٌ تركتها بين مرِّ الأسى وذل الهوان
وإذا نهضةٌ تدب بمصرٍ كدبيب الحياة فى الأبدان
وإذا اليومُ باسمٌ والليالى مشرقاتٌ والدهرُ مُلقى العنان
وإذا الضادُ تستعيدُ جمالا كاد يقضى عليه ريب الزمان
نزلتْ فى حِمَى فؤادٍ فاضحت من أياديه فى أعزّ مكان
ملك شاد للكنانه مجـــداً فسمت باسمه على البلدان
كلَّ يوم يَمُدُّ للعـــلم كفّا خُلِقَتْ للوفاء والإحسان

* * *

إنَّ دارَ العلوم بِنْيَةُ إسما عيلَ تُزْهَى به على كل بانى
من يسامى أبا المواهب والأشـــبال فى فيض جوده أو يدانى ؟
هى فى مصر كعبةٌ بعث الشر قُ إليها طوائفَ الركبان
قد أعادتْ عهدَ الاعاريبِ فى مصـــرَ إلى ناعمٍ من العيش هانى
وأظلت بنتَ الفـــدافدِ والبيـــدِ بأفياء دَوْحِها الفَيْنان

درجت بين فتية وشيوخ كلهم ينتمى إلى سحبان
وأطلت من الخباء عليهم فسبتهم بسحرها الفتان
فُتِنوا بالعُذَيب والسفح والجز ع ووادى العقيق والصمان
يتلقَّوْن وحيها كل حين ويناجون طيفها كل آن
ويغنون باسمها مثل ما غنّى زهيرٌ بسيرة ابن سنان
نثرت درها الفريد فكانوا أسرع الناس فى التقاط الجمان

***

رب شيخ أفنى سواد الليالى ساهد العين جاهداً غير وانى
من بحوث إلى كتابة نقد ثم من معجم إلى ديوان
يقنص الآبدات عزّت على الصيد فماست بين الربا والرعان
سارحات كأنها قطع الوشى يطرزن سندس القيعان
إن تسمعن نَبْأَةً غبن فى الريح كسرٍّ يصان بالكتمان
فاذا ما أمنّ يخرجن أرسا لاً كخيل تشطن من أرسان
كل جزء فى جسمهن له عين على الشر أو له أذنان
لم يزل صاحبى يعالج منهنّ نفاراً مستعصيا ويعانى
فى فلاة لا تحمل الريح فيها غير رنات قوسه المرنان
كلما طار خلفهن تسربن هباء فى غيهب النسيان
فتراه حينا كما وثب الليثُ وحينا ينساب كالافعوان
وهى تلهو به فآنا تجافيه وآنا تُملى له فتدانى
مرةً فى مدى يديه وأخرى ماله باقتناصهن يدان
لم يقف نادماً يقلب كفيه فعالَ المجوَّف الحيران